تداولية الخطاب المسرحي مسرحية "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم-أنموذجا-

أ/ فطومة لحمادي
جـــامعة – تبسة –

كثيرا ما كانت التداولية تنعت بصندوق قمامة اللسانيات؛ لأنها تدرس كل ما تعتبره اللسانيات فضلة؛فهي-التداولية-تهتم بالبعد الاستعمالي أو الانجازي للكلام آخـذة بعـين الاعتبار المتكلم والسياق،"وقد عمد البـاحثون إلـى المـنهج التـداولي ليمـدهم بـرؤى متعددة،نتيجة لقصور الدراسات الشكلية وإهمالها لمقاربة اللغة في تجليها الحقيقي؛أي في الاستعمال التواصلي بين الناس.[1]"

وكان المنهج التداولي بمثابة ردة فعل على معالجات تشومسكي للغة بوصـفها أداة تجريدية أو قدرة ذهنية قابلة للانفصال عن استعمالها ومستعمليها.ومن أسباب ظهور المنهج التداولي القناعة التي مفادها أن المعرفة المتقدمة بالنحو والصوت والدلالـة لـم تستطع التعامل مع ظواهر معينة ذات أهمية بالغة،ويمكن اعتبار الإدراك المتزايد بوجود فجوة بين النظريات اللسانية من جهة ودراسة الاتصال اللغوي من جهة أخرى سببا آخر للاهتمام بالتداولية [2].

تعريف التداولية :

بالرغم من أن التداولية هي مبحث لساني جديد،إلا أن البحث فيها يمكـن أن يؤرخ له منـذ القـدم حيـث كانـت تسـتعمل كلمـة (pragmaticus) اللاتينيـة ،وكلمة (pragmaticos)الإغريقية بمعنى (عملي)،ويعود الاستعمال الحـديث والحـالي للتداولية (pragmatics)للفيلسوف الأمريكي (CHARLES MORRIS)عام1938م في كتابه(أسس نظرية العلامات) الذي تأثر بالعقيـدة الفلسـفية الأمريكيـة البراغماتيـة (الذرائعية).ففي تعريفه للتداولية يقول:"التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات"،وتعرفها آن ماري دبير ANNE-MARIE)

(DILLER،وفرانسوا ريكاناتي(FRANÇOIS RĔCANATI)كالتالي:"هي دراسة استعمال اللغة في الخطاب،شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية"،ويظهر تعريف إدماجي آخر،تحت ريشة فرانسيس جاك (FRANCIS JAQUE)إذ تتطرق التداولية ،كظاهرة خطابية،وتواصلية واجتماعية معا.[3]"

نصل من خلال هذه التعريفات إلى أن الدارسين لم يتفقوا حول تعريف واحد للتداولية؛وذلك لكونها لا تعد "علما لغويا محضا-بالمعنى التقليدي-علما يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة،ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال،ويدمج من ثم مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره،وعليه فإن الحديث عن التداولية وعن شبكتها المفاهيمية يقتضي الإشارة إلى العلاقات القائمة بينها وبين الحقول المختلفة؛لأنها تشي بانتمائها إلى حقول مفاهيمية تضم مستويات متداخلة،كالبنية اللغوية،وقواعد التخاطب،والاستدلالات التداولية،والعمليات الذهنية المتحكمة في الإنتاج والفهم اللغويين،وعلاقة البنية اللغوية بظروف الاستعمال...إلخ.[4]"إذن التداولية تقع في مفترق الطرق بين حقول معرفية عدة أهمها:الفلسفة التحليلية(فلسفة اللغة العادية)،علم النفس المعرفي،علوم الاتصال،واللسانيات،مما صعب الأمر على الدارسين لتوحيد مفهومها.

ولكن على الرغم من ذلك فإن التداولية تحاول الإجابة عن الأسئلة التالية:

-ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟لماذا نطلب من جارنا حول المائدة أن يمدنا بكذا،بينما يظهر واضحا أن في إمكانه ذلك؟فمن يتكلم إذن؟وإلى من يتكلم؟من يتكلم ومع من؟ من يتكلم ولأجل من؟وغيرها من الأسئلة التي تهتم بها التداولية.[5]

مبادئ التداولية:

تعد التداولية حقلا يعيد النظر في المبادئ التي تتأسس عليها الأبحاث اللسانية السابقة،والمتمثلة في:

-أسبقية الاستعمال الوصفي والتمثيلي للغة.

-أسبقية النظام والبنية على الاستعمال.

-أسبقية القدرة على الإنجاز.

-أسبقية اللغة على الكلام.

درجات التداولية :

يعتبر الهولندي"هانسون"أول من حاول التوحيد بين مختلف مكونات التداولية؛وذلك من خلال تقسيمه للتداولية إلى ثلاث درجات؛فكل درجة تهتم بالسياق لكن توظيفه يختلف من درجة إلى أخرى،وهذه الدرجات هي :

-1 تداولية من الدرجة الأولى:تهتم هذه التداولية بالرموز الإشارية التي تحيل إلى المتكلمين ،والزمان،والمكان،وكذا بدراسة البصمات التي تشير إلى عنصر الذاتية في الخطاب والتي تتحدد مرجعيتها ودلالتها من خلال سياق الحديث .

-2 تداولية من الدرجة الثانية:تتضمن دراسة الأسلوب أو الطريقة التي تعبر بوساطتها عن قضايا مطروحة،وهي تدرس كيفية انتقال الدلالة من المستوى الصريح إلى المستوى التلميحي(الضمني)،وأهم نظرياتها:قوانين الخطاب،مبادئ المحادثة،الحجاج،الأقوال المتضمنة...وغيرها.وسياقها موسع لأنه لا يهتم بمظاهر المكان والزمان بل يتعداها إلى الاعتقادات المتقاسمة بين المتخاطبين .

-3 تداولية من الدرجة الثالثة:وهي نظرية أفعال اللغة لأوستين،التي تفيد أن الأقوال المتلفظ بها لا تصف الحالة الراهنة للأشياء فحسب بل إنها تنجز أفعالا.والسياق في هذه الحالة هو الذي يحدد فيما إذا تم التلفظ بأمر،أو نهي، أو استفهام،أو غيرها .

تعريف الخطاب :

عرف مصطلح الخطاب تعريفات كثيرة ،وهو يعني لغة "خطب فلان إلى فلان فخطبه وأخطبه أي أجابه،والخطاب والمخاطبة:مراجعة الكلام،وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا،وهما يتخاطبان[6]"

وورد في المعجم الوسيط:"الخطاب:الكلام،وفي التنزيل العزيز:﴿فقال اكفلنيها وعزني في الخطاب﴾(ص/23 [7]" (إذن يعني الخطاب في المعاجم الكلام المتبادل بين المتخاطبين،وقد ورد لفظ الخطاب في القرآن الكريم بصيغ مختلفة ،فمنها ما جاء على صيغة الفعل في قوله تعالى:﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾(الفرقان/63)،والمصدر في قوله تعالى:﴿وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾(ص/20)؛أي آتيناه البينة وزودناه بقدرة على الكلام البليغ.وورد لفظ الخطاب بكثرة عند الأصوليين؛نظرا لكونه الأرضية التي استقامت عليها أعمالهم،و قد عرفه الآمدي بقوله:"اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه. "

أما عند الغربيين فلم يحظ بتعريف شاف وكاف؛ وذلك نظرا لاختلاف مناهج الدراسات اللغوية ،فمن الدارسين من نظر إليه من الناحية الشكلية؛أي بمقارنته بالجملة التي يتجاوزها في الشكل والحجم،ومنهم من وصفه من خلال استعمال أي وحدة لغوية،وآخرون ذهبوا إلى وصفه بالملفوظ.[8]

ففي المنهج الشكلي يعرف الخطاب بوصفه الوحدة الأكبر من الجملة؛لذا يهتم الدارس بعناصر انسجامه،واتساقه،وتعالق وحداته بعضها ببعض،بل ومناسبة بعضها للبعض الآخر.أما الاتجاه الثاني فهو المنهج الوظيفي الذي يولي عناية بالوظائف اللغوية التي يحققها المتكلم،فهذا أحمد المتوكل يعرف الخطاب بقوله:"الخطاب يوحي،أكثر من مصطلح النص بأن المقصود ليس مجرد سلسلة لفظية(عبارة أو مجموعة من العبارات) تحكمها قوانين الاتساق الداخلي(الصوتية،والتركيبية،والدلالية،والصرف)بل كل إنتاج لغوي يربط فيه ربط تبعية بين بنيته الداخلية وظروفه المقامية(بالمعنى الواسع [9]" (ويقصد بربط التبعية"أن بنية الخطاب ليست متعالقة والظروف المقامية التي ينتج فيها فحسب بل إن تحديدها لا يمكن أن يتم إلا وفقا لهذه الظروف(...)أما عبارة كل إنتاج لغوي فإننا قصدنا إيرادها على وجه الإطلاق دون تحديد لحجم الخطاب لكي تحيل على الجملة أو جزء الجملة أو على مجموعة من الجمل[10]"فيم يمثل المنهج الثالث نقطة التلاقي بين المنهجين السابقين؛أي بين البنية والوظيفة.

أنواع الخطاب :

وللخطاب أنواع أو أنماط عديدة،منها ما يتعلق بغرض الخطاب كالخطاب السردي،أو الخطاب الوصفي،أو الحجاجي...وغيرها،ومنها ما يرتبط بنوع المشاركة كأن يكون حوارا،أو مجرد مونولوج(خطاب لا يوجهه المتكلم لغير نفسه)،وأخرى تتعلق بطريقة المشاركة مباشرة كانت أو غير مباشرة إلى جانب نوع آخر للخطاب يتعلق بنوع قناة تمريره كأن يكون شفويا أو مكتوبا،أو غير ذلك من الأنماط[11]

واستعنا في مقالتنا هذه بنوع من أنواع الخطابات التي تكتنفها الكثير من الإشكالات ؛سواء في تحديد مفهومها أو في كيفية دراستها ،والتي تتمثل في الخطابات المسرحية.

–تعريف المسرحية : إن الفعل الأدائي أو المسرحاني تأكيد على خصوصية المسرح عن غيره من فنون الأداء الواقعي،لذا فالمسرحية تعني "فن أو تقنية تحويل النص إلى خطاب

مسرحي محمل بدلالات كثيفة تتفتح على مجالات أبعد من حدود السرد[12]"،أو بعبارة أخرى إنها توظيف ووعي بمفردات وعناصر العمل المسرحي المادية المجسدة بكل ما يتوفر عليه من إيحاءات ومعطيات خارجية؛أي ما يتعلق ببنية النص من الخارج.

إذن فالمسرحية تعمل على نقل النص المسرحي من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل؛أي من النص المكتوب إلى العرض.لكن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو:هل المسرحية نسخة من الحياة الواقعية،أم أنها مجرد محاكاة لها؟

يقول ألاردیس نیکول في هذا الموضوع:"إذا كنا نأخذ(برأي أن المسرح صورة تعكس الواقع)، فإن المسرحية تكون فترة مقتبسة من الحياة،ومعنى هذا أن هدف الكاتب المسرحي يجب أن يكون إعطاءنا من فوق منصة المسرح صورة طبقا للأصل لمشهد في الحياة،ويجب أن يكون حوار تلك المسرحية أحسن أنواع الحوار الذي يكسبها صورة صوتية مطابقة للأحاديث الحقيقية التي تجري بين الناس في حياتهم العادية،ولا بد أن يكون أعظم ما في المسرحية من جمال هو مطابقتها لواقع الحياة[13]"

لكنه في الوقت نفسه ينتقد هذا الرأي بقوله:"إذا ألقينا نظرة خاطفة على هذه الآراء،فقد نشعر بما يغرينا بالاعتقاد في أنها آراء صحيحة جديرة بالثناء،إلا أن لحظة من التفكر فيها،قمينة بأن تكشف لنا عن زيفها،وبصرف النظر عما يخطر ببال الإنسان من أن أعظم الكتاب المسرحيين إن هم إلا مجرد أبواق(...)تسجل الحياة كما هي فسرعان ما نتبين أن هذا النوع من المسرحية هو من المستحيلات[14]"إذ لا يمكن أن تشتهر مسرحية من المسرحيات بمجرد أنها صورت مشهدا، أو وضعا طبيعيا، أو اجتماعيا بطريقة مطابقة للواقع ؛لأن الغاية من العمل المسرحي هو التأثير في جمهور المتفرجين الذين تختلف طبائعهم ،وأمزجتهم، وثقافاتهم ،وأهواؤهم.

إذن لا نستطيع أن نعتبر المسرحية تصويرا حقيقيا للواقع،وهذا ما ذهب إليه"كولرج"في قوله:" المسرحية ليست نسخة للطبيعة،بل هي محاكاة لها[15]"،وهذه المحاكاة ليست أية محاكاة لأن خشبة المسرح تحول الأشياء والأجساد الواقعة عليها،وتضفي عليها قوة دلالية كبيرة تفتقدها هذه الأشياء والأجساد[16]

فالمسرحية تبحث عن عالمها الخاص بها و المميز لها؛لأنها في البداية كانت نصا مكتوبا حوله العرض إلى بؤرة من الاحتمالات والتوقعات اللامحدودة ،حيث إن الصورة والحركة حين تلازمان اللغة تعملان على تحويلها من كونها علامة ثابتة الدلالة

إلى كونها طاقة إيحائية ومركزا من مراكز التشفير يحفل بها خطاب العرض،وهي تفاعل بين المشاركين(الممثلين، والمتلقين(الجمهور) من أجل تكييف عناصر العرض المسرحي لإنشاء بنية ممسرحة.

إشكالات تداولية المسرح:

يعد الاهتمام بالبعد التداولي للمسرح حديثا جدا يمكن ربطه زمنيا بعقد الثمانينات،فجل الدراسات المنجزة في السياق الثقافي الغربي تعود إلى هذه الفترة،إلا أنها لاقت إشكالات عديدة أهمها:

1- الإشكال الإبستمولوجي،2-الإشكال النظري،3-الإشكال الإجرائي .

فإبستمولوجيا ما طبيعة العلاقة بين المسرح والتداولية؟وأي منهما يستمد نموذجه من خلال استعمال الآخر؟ هل استخدمت التداولية كوسيلة لدراسة الخطاب المسرحي ،أم أنها استعملت التلفظ المسرحي كنموذج تفكر به في مختلف القضايا اللغوية التي تدرسها؟

فهذا الإشكال توصل إليه "دومنيك مانغونو DOMINIQUE" " "MAINGUENEAUمن خلال قوله:"أردنا استعمال التداولية من أجل تحليل التلفظ المسرحي،فاكتشفنا أنها تفكر في اللغة عبر نموذج هذا التلفظ المسرحي نفسه[17]"،وما يدعم قوله هذا أن المقاربات التداولية تتناول الخطاب الأدبي بصفة عامة والخطاب المسرحي بصفة خاصة،فهي كثيرا ما تلجأ في اختيار مفاهيمها إلى مقاطع درامية من كتابات مسرحية كلاسيكية أو حديثة.

ونظرا لتعدد مفاهيم التداولية ودرجاتها المختلفة نقف أمام إشكال نظري يتمثل في:أي شكل من أشكال التداولية يمكن توظيفه في إطار نظرية المسرح؟هذا دون أن ننسى الإشكال الثالث والمتمثل في الإشكال الإجرائي؛ذلك لأن التداولية في مقارباتها المتعددة استطاعت توظيف النص الأدبي المسرحي دون أن تتمكن من اختراق منطقة العرض،فهذا "باتريس بافيس "PATRICE PAVIS "يؤكد على هذه الإشكالية بقوله:"تتجه التداولية اللسانية نحو أخذ النص الدرامي وحده بعين الاعتبار مقلصة العرض إلى نص،من السهولة في الواقع نقل الدراسات التداولية للبرهنة في الخطاب العادي(بعض الروابط المنطقية،مثل:(لكن،مادام،إذا)عند ديكرو-1980) DUCROT (1984إلى مستوى النص الدرامي،وتبقى النتائج المستخلصة جد صحيحة بالنسبة لهذا

النص الخصوصي وليس بالنسبة للعرض ككل؛لهذا تقصى الوضعية المشهدية(scenitique)،مع العلم أن الاستعمال المحسوس للتلفظ المشهدي هو العنصر الذي يحدد المعنى التداولي للنص المعروض.يستحسن إذن اختيار الروابط المنطقية-تحت أي شكل كانت-والتي استعملت من لدن الممثل الواحد والخشبة لمعرفة ماذا غيرت في الروابط المنطقية للنص[18]"

ونتيجة لهذا الإشكال توقفت المقاربات التداولية عند حدود النص الدرامي،ولم تتجاوزه إلا في حالات قليلة،وذلك من خلال المقاربة السيميائية التي اهتم فيها أصحابها بدراسة العلامات المسرحية(كالممثل وصفاته الجسدية،والعلامات المصاحبة...وغيرها)،والبحث عن مساهمتها في صياغة الدلالات الاصطلاحية والاجتماعية،والثقافية...إلخ،ولكن على الرغم من هذه المحاولات إلا أنها لم تستطع أن تخرج من دائرة النص الدرامي.

البعد التداولي للخطاب المسرحي من خلال أفعال الكلام:

تعد نظرية الأفعال الكلامية من بين النظريات التداولية التي كان لها صدى كبيرا في مجال الدراسات اللسانية بالخصوص،وقد أسسها الفيلسوف الإنجليزي أوستين " "AUSTIN"الذي"يرى أن وظيفة اللغة الأساسية ليست إيصال المعلومات والتعبير عن الأفكار،إنما هي مؤسسة تتكفل بتحويل الأقوال التي تصدر ضمن معطيات سياقية إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية[19]"

وانطلق أوستين في تأسيس هذه النظرية من انتقاده للرأي القائل أن اللغة تهدف بالخصوص إلى وصف الواقع،وأن وصف شيء معين لا يمكن له أن يخرج عن إطار الخطإ والصواب،ويؤكد أن هناك بعضا من الجمل لا يمكننا الحكم عليها بالصدق أو الكذب،ولا تصف الحالة الراهنة أو السابقة وإنما تغيرها أو تسعى إلى تغييرها كجمل:الاستفهام،والتعجب ،والأمر، والنهي... إلخ

مفهوم الفعل الكلامي:

أصبح مفهوم الفعل الكلامي نواة مركزية في الكثير من الدراسات التداولية،وفحواه أن كل ملفوظ يقوم على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري،وفضلا عن ذلك يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعالا قولية لتحقيق أغراض إنجازية وغايات تأثيرية.

وقد قسم أوستين الأفعال الكلامية إلى مجموعات خمس،هي :

1- الحكميات : (verdictifs)وهدفها هو إصدار الأحكام بناءا على سلطة رسمية،أو أخلاقية،وتشمل كلا من أفعال:الحكم،التقدير،التبرئة،التحليل،إصدار مرسوم .

2- التكليف : (commissifs)ويلزم المتكلم نفسه بأفعال محددةمثل:وعد،تمنى،التزم،أقسم،تعهد...إلخ .

3- العرضية : (expositifs)والهدف منها الحجاج والنقاش والتبرير؛أي تستعمل لعرض مفاهيم وتبسيط موضوع مثل:أكد،اعترض،مثل،فسر،نقل أقوالا .

4- السلوكيات : (comportemanteaux)هدفها إبداء سلوك معين كالشكر،والترحيب،والنقد،والتعزية،والمباركة،واللعنة .

5- التمرسية : (exercitifs)هدفها إبداء إصدار حكم فاصل؛أي تقوم على إصدار قرار لصالح أو ضد سلسلة أفعال مثل:دافع عن،تأسف،نصح،عين،طالب،نبه...إلخ .

غير أن سيرل انتقد هذا التقسيم؛لأنه لم يراع مجموعة من المعايير أهمها:غاية الفعل،وجهة الإنجاز،أسلوب إنجاز الفعل الإنجازي...وغيرها.لذا اقترح تعديلا لتقسيم أوستين متمثلا في التقسيم التالي :

1- الأفعال التأكيدية : (assertifs)هدفها هو تعهد المرسل بأن شيئا ما هو واقعة حقيقية .

2- الأفعال التوجيهية : (direrctifs)وتقوم وجهة الإنجاز في الأوامر على حصول المتكلم بواسطتها على قيام المستمع بشيء ما،وذلك بالإغراء،أو الاقتراح،أو اللين،أو النصح،أو بالعنف والشدة .

3- الأفعال الإلزامية : (commissifs)وهدفها إلزام المتكلم بالقيام بشيء ما .

4- الأفعال التعبيرية : (expressifs)وهدفها التعبير عن الحالة النفسية للمتكلم شرط عقد النية والصدق في محتوى الخطاب .

5- الأفعال التصريحية : (déclarations)وهدفها جعل الواقع يطابق الخطاب والخطاب يطابق الواقع[20]

وقد توصل أوستين في مرحلة متأخرة من مراحل بحثه إلى تقسيم الفعل الكلامي إلى ثلاثة أفعال هي :

أ-فعل القول:ويراد به إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة.

ب-الفعل المتضمن في القول:وهو الفعل الإنجازي الحقيقي إذ إنه عمل ينجز بقول ما.

ج-الفعل الناتج عن القول:يرى أوستين أن القيام بفعل القول،وما يصحبه من فعل متضمن في القول،يقوم بفعل ثالث هو التسبب في نشوء آثار في المشاعر والفكر،ومن أمثلة ذلك:الإقناع،الإرشاد،التثبيط،الإستفزاز...إلخ[21]

الفعل الكلامي غيرالمباشر :

يعد سيرل من بين الأوائل الذين تناولوا بالدرس "الأقوال التي لا تدل صيغتها على ما تدل عليه،فقد لاحظ أن التأويل الكافي لجمل اللغات الطبيعية يصبح متعذرا إذا اكتفينا بما تحويه الصيغة من معلومات،وأبرز مثال على ذلك المثال المشهور:"هل يمكنك أن تناولني الملح"التي ظاهرها استفهام،ولكن دلالتها لا تشير البتة إلى الاستفهام إنما تشير إلى الطلب[22]"

إذن فالجملة دلالتها الحرفية الاستفهام في حين أن دلالتها الضمنية هي الالتماس،وهذا ما اصطلح عليه "سيرل" بالاستلزام الحواري،أو الأفعال اللغوية غير المباشرة،وقد اقترح "غرايس" مجموعة من القواعد لتضبط عملية التخاطب وتشمل على:"قاعدة الكم"و"قاعدة الكيف"و"قاعدة الورود"و"قاعدة الكيفية"،وإذا تم خرق إحدى هذه القواعد فينتج لدينا استلزام حواري[23].

الحوار المسرحي :

تقوم دعائم الخطاب المسرحي على الحوار الذي يوظف فيه المتخاطبان كل طاقاتهما الفكرية،والجسدية في كثير من الأحيان.ومن الدراسات المتميزة في إطار التداولية المسرحية ما قامت به"آن أوبرسفيلد"و"أوركيوني"بتطبيقهما لنظرية أفعال الكلام على الخطابات المسرحية،حيث توصلت أوبرسفيلد إلى أن خصوصية التلفظ المسرحي تتجلى في تراكب وضعيتين للتلفظ هما:وضعية التلفظ التخييلي،ووضعية التلفظ المشهدي(فوق خشبة المسرح)،وأن الكتابة المسرحية الحديثة تولي اهتماما كبيرا لصراع الأفكار والعواطف،التي تنتج عن صراع الأفراد والجماعات؛إذن فالمسرح يوظف بصفة

خاصة الخطاب العادي(اليومي) لإظهار الحركية الخاصة للعلاقات الإنسانية بالطريقة التي تتجلى فيها استراتيجية أفعال الكلام[24]"

في حين هناك من يذهب إلى القول أن أفعال الكلام في المسرح ماهي إلا مجرد تمثيلات لفعل الكلام في الواقع؛لأن حوارها خيالي وليست له أي صلة بالواقع،غير أن هذا القول مردود على أصحابه لأننا نرى أن عناصر الفعل الكلامي ك(الفعل التلفظي) متحققة دائما،فبمجرد أن يتلفظ المتكلم بقول فهو أنجز فعلا،ولو كانت الوضعية الخطابية غير حقيقية،فحينما يقول أحدهم أتوقف عن فعل ذلك الشيء فإذا توقف بالفعل يكون قد حقق من جراء ذلك فعلا رغم كون الوضع الخطابي خيالي .

والمتكلم قبل أن يتكلم،يطرح على نفسه مجموعة من الأسئلة من النمط الآتي:من أكون لأتلفظ بهذا القول؟ما مقام الشخص الذي أخاطبه بهذا الأسلوب؟لماذا أقول له/يقول لي؟...وغيرها .

- أندريه:تأكل بلحا !
- محسن:نعم...وفي شوارع باريس . . . !
- أندريه:آه أيها العصفور القادم من الشرق[25]

لقد أنكر "أندريه" الشاب الفرنسي فعل "محسن" بأكله البلح في باريس ورميه النواة من فمه؛لأنه يعده سلوكا غير حضاري ومنبوذ في البيئة الفرنسية،وقد تمكن من أن يوجه هذا الخطاب إلى محسن لأنه صديقه الحميم،ولولا هذه الصداقة لما استطاع أن يبدي برأيه هذا.إذن فعلى المتكلمين مراعاة وضعية التلفظ situation d'énonciation التي تتضمن المتخاطبين والسياق .

في حين نلاحظ تغير أسلوب الكلام بين"شيخ الأزهر"وصديقه الفرنسي"أناتول"، فبعدما كانا يترافقان معظم الأوقات إلى الحديقة العامة،ويتبادلان الحديث في مواضيع عدة،وهما لا يعرفان صفة كل منهما ،لكن بعد معرفة الشيخ لمكانة "أناتول" وبأنه أكبر كاتب في فرنسا راح يعتذر له :

- الشيخ:سيدي...أنت رجل عظيم...أنت أكبر كاتب في فرنسا...اغفر لي غباوتي[26] .

فبعدما كان ينعته بالشيخ العجوز والمخرف أصبح يناديه بالسيد وهذا لمعرفته السلطة التي يملكها هذا الشخص.إذن فالعلاقة أصبحت عمودية؛ لأن محورها

السلطة،وهذا ما غير من طبيعة الخطاب،لذا رفض"أناتول"أن يتعامل مع صديقه من خلال هذه السلطة؛فهو يرغب في أن تكون العلاقة بينهما بسيطة عفوية خالية من أي دافع أو أغراض نفعية،وهذا هو عين التأدب في الخطاب.

شروط النجاح:

لضمان نجاح الفعل الكلامي بين المتخاطبين ينبغي توفر القواعد التأسيسية التي نادى بها "غرايس"،لكن هناك من أطراف الكلام من يخترق قانون التأدب الذي أكدت على أهميته"روبين لاكوف"،وراح يمارس سلطته على الآخرين من خلال خطابات تجسد الفرق بينه وبين الآخرين.وهذا النوع من الخطاب يبرز بقوة في الحوار الذي جرى بين"هنري"مدير تياترو "الأوديون"و"كلوتيلد"حارسة المقاصير.

- هنري:أيتها الحمقاء كلوتيلد!...الليلة

رواية"الأرليزيه"...أتريدين"الأرليزيه"بغير موسيقى؟ !...أعدي محل"الأوركستر" حالا أيتها الشمطاء

!...[27]

هذه النعوت والشتائم وجهها هنري إلى كلوتيلد ؛لأنه يرى نفسه يملك السلطة التي تخول له إصدار هذا النوع من الخطاب،فهو يخترق قانون التأدب (قانون التودد) الذي يؤكد على أهمية إظهار الود إلى المرسل إليه.

الاستلزام الحواري:

كما هو معلوم أن اللغة ليست وسيلة التعبير عن الأفكار أو توصيل المعلومات فقط،بل هي سبب في تحويل الوضعيات بجعل الآخر يعترف بالنوايا التداولية للمتكلم.وانطلاقا من ذلك تلعب الأفعال الكلامية دورا في تحويل مقاصد ومعتقدات المتخاطبين،وذلك من خلال العمليات الذهنية الاستنتاجية التي يقوم بها المتخاطبون والتي لا تظهر في العملية التلفظية .كهذا الحوار الذي جرى بين"أندريه"و"محسن"

- أندريه:أيها العصفور الشرقي!...تعد نفسك لدخول الكنيسة ما معنى هذا؟إننا ندخلها كما ندخل القهوة،أي فرق؟...هنا محل عام،وهنا محل عام...هناك الأورغن،وهنا الأوركسترا.

- محسن:بل هناك السماء][28]

إن إجابة محسن تدل دلالة حرفية على أن الفرق بين المقهى والكنيسة هو وجود السماء،أما دلالتها الاستلزامية(الضمنية)فهي تشير إلى أن محسن من الذين يملكون

بين جوانحهم قلوبا مؤمنة تحترم وتقدس أماكن العبادة(المساجد والكنائس) على حد سواء،على عكس صديقه أندريه الذي جرفته المادية الغربية وأنسته تعاليم الدين المسيحي.

الأفعال الكلامية الجامعة:

إن النصوص مهما كان طولها لا تؤدي بالضرورة دائما أفعالا كلامية مختلفة كالشكر والتهنئة والأمر والوعد...إلخ،وإنما تؤدي فعلا كلاميا واحدا في أحايين كثيرة،وهذا ما نجده في المقاطع الدينية،أو في مقام الشكر أو التعزية وغيرها،وهذا ما لمسناه في المقطع التالي:

- سوزي:لمن هذا؟
- محسن:لك . . . !
- سوزي:لي أنا؟...شكرا لك يا سيدي...لكن لماذا؟ . . .
- محسن:هذا ما استطعت أن أقدمه إليك،اعترافا بجميلك،فأرجو أن تقبليه مني . . . !

سوزي:أكرر لك شكري با...مسيو[29] . . .

إن هذا الحوار في معظمه يحمل دلالة الشكر،لكن هذا لا ينفي وجود أفعال كلامية أخرى كالاستفهام والتعجب وغيرها لأن العملية التخاطبية لا تقوم على فعل كلامي واحد وإنما تتضافر الأفعال الكلامية المختلفة لتعبر عن الكفاءة التداولية للمتكلمين

وفي الختام نقول إن التداولية استطاعت أن تفتح آفاقا جديدة للدرس اللغوي بعد أن سادته الدراسات البنوية الشكلية،وكذا التصورات التجريدية الذهنية.فهي تمكنت من الاهتمام بالأطراف المشاركة في العملية التخاطبية،وتعتبر أن اللغة مؤسسة تضمن استمرارية الأقوال أثناء الخطاب.ويعتبر المسرح من أهم الميادين التي أثرت الدراسات التداولي بالعديد من الإجراءات حتى أضحت التداولية والمسرح كالعملة الواحدة ذات الوجهين لا يمكن الفصل بينهما .

الهوامش:

[1]–عبد الهادي بن ظافر الشهري،استراتيجيات الخطاب"مقاربة لغوية تداولية"،دار الكتاب لجديد،بيروت لبنان،ط1، 2004،ص21

[2]- نقلا عن: المرجع السابق،ص21

[3]- عمر بلخير،تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية،منشورات الإختلاف،الجزائر،ط1 2003،ص155

[4]-مسعود صحراوي،التداولية عند العرب"دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي"،دار الطليعة ،بيروت،لبنان،ط2005 ، 1،ص16

[5]-ينظر:فرانسواز أرمنيكو،المقاربة التداولية،ص07

[6]-ابن منظور الإفريقي،لسان العرب،دار صادر،بيروت،لبنان،ط1،ج2،1997،ص275

[7]-إبراهيم مصطفى،حسن الزيات،حامد عبد القادر،محمد علي النجار،المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية،القاهرة،ط3،(د.ت)،ج1،ص251.

8-ينظر:عبد الهادي ظافر الشهري،استراتيجيات الخطاب"مقاربة لغوية تداوليـــة،ص35–37.

[9]-أحمد المتوكل،قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية"بنية الخطاب من الجملة إلـــى النص"،دار الأمان،الرباط،(د.ط)،(د.ت)،ص16–17.

[10]-المرجع نفسه،الصفحة نفسها

[11]-ينظر:المرجع نفسه،ص20–21

[12]–أحمد الحمدينو،دروس مسرحية منتقاة من الموقع الإلكتروني:

[13]ألارديس نيكول،علم المسرحية،تر:دريني خشبة،دار سعاد الصباح،الكويت،ط2،ص26

[14]-المرجع نفسه،ص28

[15]- نقلا: عن المرجع نفسه،ص31

[16]-ينظر:سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد،مـــدخل إلـــى الســـيميوطيقا "العلامـــات فـــي المسرح"،دار إلياس العصرية،القاهرة،1986،ص241 .

[17]- http://aslimnet.net/ressn-youssefi/msm6.htm
يوسفي،المسرح والتداولية،من الموقع الإلكتروني نقلا عن:حسن

[18]-ينظر الموقع نفسه

-19

[20] ينظر: فرانسواز أرمنيكو،المقاربة التداولية،ص 62-68،و عمربلخير:تحليل الخطـــاب المسرحي،ص159-160 .

[21]-ينظر:مسعود صحراوي،التداولية عند العرب،ص40-42

[22]-عمر بلخير،تحليل الخطاب المسرحي،ص164 .

[23]-ينظر:أحمد المتوكل،دراسات في نحـــو اللغـــة العربيـــة الـــوظيفي،دار الثقافة،الـــدار البيضاء،المغرب،ط1، 1986،ص110 .